

## القاعدة الستون:

من قواعد التعليم الذي أرشد الله إليه في كتابه: أن القصص المبسوطة يُجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها، والأمور المهمة يتنقل في تقريرها نفياً وإثباتاً من درجة إلى أعلى أو أنزل منها.

وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتقرر فيه المطالب المهمة؛ وذلك أنه إذا أجملت القصة بكلام كالأصل والقاعدة لها، ثم وقع التفصيل بعد ذلك الإجمال، وقع إيضاح وبيان تام كامل لا يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم إجمال، وقد وقع هذا النوع في القرآن في مواضع:

منها: في قصة يوسف في قوله: ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَخْسَرَ الْفَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَلِخَوْيِهِءَا يَأْتِي لِسَائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، ثم ساق القصة بعدها.

وكذلك في قصة أهل الكهف، لما قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفَ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ أَيْنَتِنَا عَجَّبًا﴾ [الكهف: ٩] إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا رَبَّنَا مَنْ لَدُنْكَ رَحْمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١١] فَضَرَبُنَا عَلَى مَا ذَانُوهُمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١٢] ثُمَّ بَعْثَتْهُمْ لِنَعْلَمَ أَئِ الْجَنِينَ أَحْصَنَ لِمَا لَيْسُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٣]، فهذا إجمالها قد حوى مقصودها وزُبدتها، ثم وقع بعده التفصيل بقوله: ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْعَيْنِ﴾ [الكهف: ١٤] إلى آخر القصة.

وكذلك في قصة موسى، لما قال تعالى: ﴿تَنْتَلُوا عَلَيْكُم مِّنْ نَبِأْ  
مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يَّقْرَئُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَخْذُلُونَ﴾  
[القصص: ٣ - ٦]، هذا مجملها، ثم وقع التفصيل.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَيْكَ عَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ يَحْدُثْ لَهُ  
عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] فأجملها، ثم وقع بعده التفصيل.

وأما التنقل في تقرير الأشياء من أمرٍ إلى ما هو أولى منه،  
فكثير:

منها: لما أنكر على من اتخذ مع الله إلهًا آخر، وزعم أن الله  
تعالى اتخذ ولدًا؛ قال في إبطال هذا: ﴿مَا لَمْ يَهُ مِنْ عِلْمٍ وَلَا  
لِأَبَابِيهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، فأبان أن قولهم هذا قول بلا علم. ومن المعلوم  
أن القول بلا علم من الطرق الباطلة؛ ثم ذكر قبحه، فقال: ﴿كَبَرَتْ  
كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، ثم ذكر مرتبة هذا القول من  
البطلان، فقال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وقال في حق المنكرين للبعث: ﴿بَلْ أَذَرَكُ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾  
[النمل: ٦٦]، أي: علمهم فيها علم ضعيف لا يعتمد عليه، ثم ذكر ما  
هو أبلغ منه، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍ﴾، ومن المعلوم أن الشك ليس  
معه من العلم شيء، ثم انتقل منه إلى قوله: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾  
[النمل: ٦٦]، والمعنى آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال نوح عليه السلام في تقرير رسالته عند من كذبه وزعم أنه  
في ضلال مبين: ﴿قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِضَلَالَةً﴾ [الأعراف: ٦١]، فلما  
نفى الضلاله من كل وجه أثبت بعده الهدى الكامل من كل وجه،  
فقال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]. ثم انتقل إلى

ما هو أعلى من ذلك، وأن مادة هذا الهدى الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدى، ومنبعه، ومادته، فقال: ﴿أَتَيْلَكُمْ رِسْلَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وكذلك هود عليه السلام.

وقال في تقرير رسالة أكمـل الرسـل: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى ⑪ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا عَوَى﴾ [النـجم: ١ - ٢]؛ فنـفي عنه ما يـنافي الـهدى من كل وجه، ثم قال: ﴿إِنَّهُ إِلَّا وَجْهٌ يُوحَى﴾ إلى آخر الآيات [النـجم: ٤]، وهو في القرآن كثير جـداً؛ كانتـقالـه من ذـكر هـبـته الـولـد لـزـكـرـيـا إـلـى مـرـيم، وأـمـرـ القـبـلـة بـعـد تـعـظـيمـه لـلـبـيـت، وـغـيـرـها.

### التعليق

هذه القاعدة تضمنت أمرين:

الإجمال، ثم التفصـيلـ. وهذا من طـرقـ الـبـلاـغـةـ؛ لأنـ الإـجمـالـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـحـفـظـ وـأـوـعـىـ لـلـذـهـنـ. ثمـ إنـ الإـجمـالـ إـذـاـ وـقـعـ بـقـيـتـ النـفـسـ مـتـشـوـفـةـ إـلـىـ التـفـصـيلـ، فـيـرـدـ عـلـيـهـ التـفـصـيلـ وـهـيـ أحـوـجـ مـاـ تـكـوـنـ إـلـىـ مـعـرـفـتـهـ. وـإـذـاـ وـرـدـ الـعـلـمـ عـلـىـ الـقـلـبـ، وـهـوـ مـحـتـاجـ إـلـىـ مـعـرـفـتـهـ، مـشـتـاقـ إـلـيـهـ؛ رـسـخـ فـيـهـ أـكـثـرـ، وـثـبـتـ فـيـهـ وـتـمـكـنـ. هـذـاـ مـنـ فـوـائـدـ التـفـصـيلـ بـعـدـ الإـجمـالـ، وـإـلـاـ فـلـوـ قـالـ قـائـلـ: لـمـاـذـاـ لـاـ يـذـكـرـ الشـيـءـ مـفـصـلـاـ مـنـ أـوـلـ الـأـمـرـ؟ـ نـقـوـلـ: لـوـ فـعـلـنـاـ ذـلـكـ لـفـاتـنـاـ هـذـانـ الـأـمـارـانـ، وـهـمـاـ: أـنـ التـفـصـيلـ بـعـدـ الإـجمـالـ أـثـبـتـ فـيـ الـقـلـبـ؛ لـأـنـهـ يـرـدـ عـلـىـ الـقـلـبـ وـهـوـ مـتـشـوـفـ لـهـ، وـلـأـنـ الـاختـصـارـ وـالـإـجمـالـ أـوـعـىـ لـلـذـهـنـ، وـأـقـرـبـ لـلـحـفـظـ.

وـأـمـاـ الـانتـقـالـ مـنـ حـالـ إـلـىـ أـخـرـ، فـهـذـاـ أـيـضـاـ ظـاهـرـ؛ لـئـلاـ تـرـدـ

المعاني على القلوب دفعةً واحدة، وإنما ترد عليها متنقلة مرحلةً مرحلةً. ومن هذا أيضاً الأحكام؛ لأن الأشياء التي لا يستطيع الناس أن يأتواها دفعةً واحدة، يجعلها الله سبحانه وتعالى مرتبة شيئاً فشيئاً.

فمن المأمورات: الصلاة، والصيام، والزكاة، كلها لها مراتب؛ ففي الصلاة: كان في الأول يصلّونها بكرةً وعشياً، ثم صارت خمس صلوات، وفي الزكاة: كانوا يؤمرون بأن يؤتوا المال حقه ﴿وَأَثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَسَادِه﴾ [الأنعام: ١٤١] بدون تقدير، ثم قدرت. وفي الصيام: كان بالأول من شاء صام، ومن شاء افتدى، ثم تعين الصيام.

وفي المنهيّات نجد أن الله جلّ وعلا في الأمور التي يصعب الامتناع عنها مرّةً واحدة يجعلها مرتبة، مثل الخمر والميسر، فإن الناس كانوا قد عاشوا عليهما، فيصعب أو يشقّ عليهم أن يدعوها مرّةً واحدة، فجعل الأمر مرتبًا ينتقلون من حال إلى حال؛ ليسهل عليهم التنفيذ والفعل، أو الترک.



## القاعدة الحادية والستون:

معرفة الأوقات وضبطها حث الله عليه  
حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص.

وذلك أن الله رب كثيراً من الأحكام العامة والخاصة على مدد وأزمنة تتوقف الأحكام عملاً وتنفيذاً على ضبط تلك المدة وإحصائها، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، قوله: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يدخل فيه مواقيت الصلوات، والصيام، والزكاة، وخصص الحج بالذكر لكثره ما يترتب عليه من الأوقات الخاصة وال العامة، وكذلك مواقيت للعدد، والديون، والإجرات وغيرها. وقال تعالى لما ذكر العدة: ﴿وَاحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، قوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخْرَى﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿بَعْشَتُهُمْ لِيَعْلَمَ أَئِ الْجِزِيرَةِ أَحْصَى لِمَا لَيْثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]؛ وذلك لمعرفة قدرة الله في إفاقتهم، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم، فمتى ترتب على ضبط الحساب، وإحصاء المدة، مصلحة في الدين، أو في الدنيا؛ كان مما حث وأرشد إليه القرآن. ويقارب هذا قوله تعالى: ﴿أَفَ كَلَّذِي مَكَرَ عَلَى فَرْتَةٍ وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَى عُرُوشَهَا﴾ إلى آخر الآيات [البقرة: ٢٥٩]، قوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ الْسِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، ونحوها من الآيات.

## التعليق

في ضبط الأمور والأوقات مصلحة عظيمة أيضاً، سوى ما ذكره المؤلف - رحمة الله -، وهي أن الإنسان لا ينفرط عليه وقته؛ لأن الإنسان إذا أطلق نفسه وأهملها انفرط عليه الوقت. لكن إذا رتب وقته، حفظ وقته وضبطه، ولم يضع عليه منه شيء؛ فمثلاً لو قال: إذا صليت الفجر رتبت نفسي، ففعلت كذا وكذا، وبعد طلوع الشمس أفعل كذا وكذا، وفي اليوم الفلاني: أفعل كذا وكذا؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أحب العمل إلى الله أدومه، وإن قل»<sup>(١)</sup>، حتى لا يصير الإنسان منفرطاً في شغله، فيضيع عليه الوقت. وقد بين الله تعالى في القرآن إضاعة الوقت من حال من أغفل الله ذكره عن قلبه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَّبَعَ هَوَنَهُ وَكَاتَ أَمْرَهُ فُرُطَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨]؛ فالذي ينبغي لك أيها الإنسان أن تضبط وقتك. وكل وقت له عمل معين، حتى لا تتدخل الأعمال، ولا يضيع عليك الوقت بلا فائدة. وذكر المؤلف - رحمة الله - أمثلةً من هذا تدل على ضبط الوقت وعلى حفظه وحمايته.



(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله .(٢٨١٨).

## القاعدة الثانية والستون:

**الصبر أكبر عون على كل الأمور، والإحاطة بالشيء  
علمًا وخبرًا هو الذي يعين على الصبر.**

وهذه القاعدة عظيمة النفع، قد دلَّ القرآن عليها صريحةً وظاهرًا في أماكن كثيرة، قال تعالى: «وَأَسْتَعِنُوا بِالصَّابَرِ وَالصَّلَوةِ» [البقرة: ٤٥]، أي: استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شؤونكم؛ بالصبر، فإن الصبر يسهل على العبد القيام بوظيفة الطاعات، وأداء حقوق الله، وحقوق عباده، وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات، فینهاها عن هواها حذر شقاها، وطلبًا لرضى مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات، ولكن هذا الصبر وسيلة آلة التي يبني عليها ولا يمكن وجوده بدونها هو معرفة الشيء المصبور عليه، وما فيه من الفضائل، وما يترتب عليه من الثمرات؛ فمتي عرف العبد ما في الطاعات من صلاح القلوب، وزيادة الإيمان، واستكمال الفضائل، وما تشرمه من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والرذائل، وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة، وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجرور، هان عليه الصبر على جميع ذلك.

وبهذا يعلم فضل العلم، وأنه أصل العمل والفضائل كلها؛ ولهذا كثيراً يذكر في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة إنما ذلك لقصور علمهم وعدم إحاطتهم التامة بها، وقال: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ

**عِبادِهِ الْعَلِمُوا** [فاطر: ٢٨]، وقال: «إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ أَشْهَدَهُ بِعِهْلَتَهُ» [النساء: ١٧]، ليس معناه أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء، إنما قصر علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات، وأنواع المضرّات، وزوال المنافع.

وقال تعالى مبيناً أنه متقرر أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء يتذرع عليه الصبر، فقال عن الخضر لما قال له موسى، وطلب منه أن يتبعه ليتعلم مما علمه الله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ مَعِي صَبَرًا ۚ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحْكَمْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨ - ٦٧]  فعدم إحاطته به خبراً يمتنع معه الصبر، ولو تجلد ما تجلد، فلا بد وأن يُعالِج صبره.

وقال تعالى مبيناً عظمة القرآن، وما هو عليه من الجلاء والصدق الكامل: «بِلَّ كَذَّبُوا بِمَا لَرَ بِعْطُوا بِعْلِيهِ، وَلَنَا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ» [يونس: ٣٩]، فأبان أن الأعداء المكذبين به إنما تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه كما هو لأجاهم واضطربهم إلى التصديق والإذعان، فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفهموه الفقه الذي يطابق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته. وقال في حق المعاندين الذين بان لهم علمه، وخبروا صدقه: «وَجَحَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنْتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُومًا» [النمل: ١٤]، وقال تعالى: «فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَ الظَّالِمِينَ يَغَيِّرُونَ اللَّهَ يَعْلَمُ دُونَهُ» [الأنسٰء: ٣٣]. والمقصود أن الله أرشد العباد إلى الاستعانة على أمرهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور، ومعرفة حقائقها، وما فيها من الفضائل أو الرذائل، والله أعلم.

## التعليق

هذه القاعدة تشتمل على أمرين:

**الأمر الأول:** أن الصبر أكبر عن على الأمور، فإن الإنسان إذا صبر على الشيء كان ذلك عوناً له على إدراكه. ويدرك أن الكسائي، وهو إمام الكوفيين في النحو، صار يتعلم النحو، فعجز عنه. وفي يوم من الأيام رأى نملة تحمل قطعة من تمرة لتصعد بها الجدار، فكلما صعدت بهذه التمرة ثقلت عليها، ثم سقطت وإياها إلى الأرض! وهكذا عدة مرات، حتى صعدت بها، فقال: هذه النملة صابرت هذا الصبر، حتى حصل لها مقصودها، في غذاء جسمي، فلماذا لا أصبر حتى أتال مقصودي في تعلم النحو؟ فصار يتعلم حتى صار إماماً في النحو.

وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يصبر على طلب العلم، وأن لا ييأس ويقول: هذا صعب عليّ! قد يصعب عليك لأول مرة ثم يسهل عليك، وتصير تقرأ الشيء وكأنه مشروح لك من قبل، والصبر يحتاج إلى ما يعينك عليه، وهو معرفة ما للمصبور عليه، أو للمصبور عنه من النتائج، فإن كان شيئاً مطلوباً حصوله، فاعلم ما يتربt عليه من الثمرات والمنافع، والمصالح، وإن كان مطلوباً تركه. فاعلم ما يتربt على فعله من الشرور والسيئات، فهذا يعينك على الصبر.

**والامر الثاني:** مما يعينك على الصبر في إدراك المطلوبات أن تقول لنفسك: أنت الآن قطعت شوطاً بعيداً للوصول إلى الغاية، ورجوعك من أثناء الطريق معناه إضاعة الوقت، وخسارة ما اكتسبت. بعض الناس مثلاً يحفظ ألفية ابن مالك، فإذا انتصف بها،

قال: هذه صعبه! وبقي عليّ نصفها، ثم تركها. فماذا حصل؟ ضيع على نفسه الفرصة، وهذا لا شك أنه سفه.

فمما يُعين على الصبر معرفة المصبور عليه، وما يتربّ عليه من النتائج والعواقب. والثاني: أنه إذا تخلّى عن الصبر أضاع على نفسه شيئاً كثيراً اكتسبه.

أما الأمر الثالث: مما يعين على الصبر أن يرجو الإنسان بصبره ثواب الله عز وجل، فإن الله يقول: ﴿وَاصْبِرْوَا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُصْبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويقول: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ الظَّاهِرُونَ أَجَرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ال Zimmerman: ١٠]. فإذا عرف ما في الصبر، بغضّ النظر عن المصبور عليه، من الثواب والكرامة، فإنه يستمر على صبره ويتحمل.

والأمر الرابع: مما يعين على الصبر، أن الإنسان إذا صبر على الشيء، صار هذا الشيء كأنه غريزة في نفسه، حتى إنه ليتخلّى إذا فقده. وانظر نفسك أيها الطالب، في أول السنة الدراسية، أول يوم، يومين، ثلاثة، تجد نفسك متعباً، مالاً من طول الدروس، فإذا تمرنت عليها، سهل عليك وهان، حتى إنك تفقد الدروس عند حلول الإجازة، وهذا شيء مشاهد، ومثل هذه الأمور تُعين الإنسان على الصبر والتحمل، وعدم النكوص على العقبين، وأن يستمر على ما هو عليه. وقد رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه قال: «من بورك له في شيء، فليلزمه» هذه الكلمة عظيمة! فلا تكن في كل يوم لك رأي ونظر، فإن هذا يذهب عليك الوقت.



## القاعدة الثالثة والستون:

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان: إيمانه وعمله الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعوى المجردة، أو بإعطاء الله للعبد من الدنيا، أو بالرياسات، كل ذلك من طرق المنحرفين.

والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلاً لهذه القاعدة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْوَلُكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُمْ بِالَّتِي تُقْرِبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَلِحًا فَأُولَئِكَ هُمُ جَزَاهُ الْصِّيفُ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سـ٢٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَقِمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنْوَنَ إِلَّا مَنْ أَقَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩ - ٨٨]، وقد أكثـر الله من هذا المعنى في عدة آيات.

وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين: فقال عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيْهُمْ قُلْ هَاكُثُوا بُرْهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ﴾ [آل عمران: ١١١]. ثم ذكر البرهان الذي من أتى به، فهو المستحق للجنة، فقال: ﴿بَلَّ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢]. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِإِيمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِيْهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ الآيات [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نُتَلَّ عَلَيْهِمْ مَا يَتَنَزَّلُ بِإِنْتِرِيْتَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ مَأْمَنُوا أَئِ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَخْسَنُ نَدِيْرًا﴾ [آل عمران: ٧٣]، ﴿وَقَالُوا لَنُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيْبَيْنِ عَظِيْمٌ﴾ [آل زخرف: ٣١]، ونحوها من الآيات التي يستدل بها

الكفار على حسن حالهم بتفوقهم في الأمور الدنيوية والرياسات، ويذمّون المؤمنين، ويستدلّون على بطّلان دينهم بنقصهم في هذه الأمور !! وهذا من أكبر مواضع الفتنة.

### التعليق

هنا ثلاثة أمور :

**الأول:** إيمان الإنسان وعمله الصالح، وهذا هو المقياس للرجل، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه، فأنكحوه»<sup>(١)</sup>، هذا هو المقياس الأول إذا كان مؤمناً عملاً بالصالحات. هذا هو الدليل على كمال حاله، وحسن حاله.

**الثاني:** دعاوى مجردة يدعىها الإنسان لنفسه، وهي بعيدة عن الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذه لا تدل على كمال حاله، وحسن حاله؛ لأن كل إنسان يستطيع أن يدعى الكمال. ولكن إذا نظرنا إلى حاله، إذا هو مفارق للكمال! لا نقبل منه. ومن هذا دعاوى أولياء الشياطين أنهم أولياء الله، وأحبّاء الله، مثل ما يدعى أولئك المخرفون، الذين يدعون الولاية لأنفسهم، أنهم أولياء الله؛ ليجذبوا الناس إليهم.

**الثالث:** إعطاء الله الإنسان المال، والرئاسة، والجاه، والسمعة، هل تدل هذه على كماله؟ لا يلزم؛ قد يكون الأمر بالعكس! قد يعطي الإنسان هذه الأمور ابتلاءً من الله عز وجل،

(١) أخرجه الترمذى في كتاب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوّجوه (١٠٨٤).

وامتحاناً له، فيتولى على الناس، ويكون له جاه عندهم ورئاسة، وما أشبه ذلك، وهذا لا يدل على حسن حاله حقيقة.

فهذه أمور ثلاثة. وميزان هذه الأمور هو: الإيمان والعمل الصالح؛ فكمال الإنسان هو بالإيمان والعمل الصالح فقط. أما الرئاسات وما يتعلق بها من الدعاوى الباطلة، فهذه لا تدل على حسن حاله **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَخْرُجُ مُصْلِحُونَ﴾** [البقرة: ١١]، لا نقبل منهم هذه الدعوى. ولهذا ردّها الله عليهم فقال: **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** [البقرة: ١٢]. أيضاً: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا آمَنُوا كَمَّا ظَاهَرَتِ النَّاسُ﴾** [البقرة: ١٣] لا يقولون: لا نؤمن، ولكن يقولون: **﴿أَتُؤْمِنُ كَمَّا ظَاهَرَ السُّفَهَاءُ﴾** فيقدحون في المؤمنين، فقال الله عز وجل: **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: ١٣]. وعلى هذا، فيجب أن ننظر إلى حال الإنسان، لا إلى دعواه الباطلة، ولا إلى ما أُوتى من مال، وولد، ورئاسة، وجاه، وما أشبه ذلك.



### القاعدة الرابعة والستون:

الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات  
أو الشبهات قد تَرِدُ على الحق والأمور اليقينية  
ولكن سرعان ما تض محل وتزول.

وهذه قاعدة شريفة جليلة، وقد وردت في عدة مواضع من القرآن؛ فمن لم يُحکمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما أوجب الخروج عن ظاهر النص، ومن عرف حكمة الله تعالى في ورودها على الحق الصريح لأسباب مزعجة تدفعها، أو لشُبُه قوية تُحدِثها، ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين، والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل، فزهد الباطل، وثبت الحق؛ حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين، فكان في ذلك التقدير حِكْماً بالغة، وأيادي سابقة، ولنمثل لهذا أمثلة:

فمنها: أن الرسُل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيماناً، ويقيناً، وتصديقاً بوعد الله ووعيده، وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوا في الرسُل أنهم قد بلغوا ذروته العليا، وأنهم معصومون من ضده، ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض من الأمور المزعجة المنافية حسأً لما عُلم يقيناً ما يجب لهؤلاء الْكُمَلُ أن يستبطئوا معه النصر، ويقولون: **﴿فَمَنِ نَصَرَ اللَّهُ﴾** [البقرة: ٢١٤]، وقد يقع في هذه الحالة على القلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات، وتأثيرها في القلوب، ثم في أسرع وقت تنجلِي هذه الحال،

ويصير لنصر الله وصدق موعده من الواقع والبشرة والأثار العجيبة أمر كبير لا يحصل بدون هذه الحالة؛ ولهذا قال: ﴿حَقٌّ إِذَا أَسْتَيْغَنَ الرَّسُولَ وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، فهذا الوارد الذي لا قرار له - ولما حقت الحقائق اضمحل وتلاشى - لا ينكر ويُطلب للآيات تأويلات مخالفة لظاهرها.

### التعليق

هذه الآية أشكلت على العلماء: ﴿حَقٌّ إِذَا أَسْتَيْغَنَ الرَّسُولَ وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌنَا﴾، وفيها قراءة سبعية: (وظنوا أنهم قد كذبوا)؛ فعلى قراءة التشديد؛ الأمر فيها واضح، يعني: تيقنوا أنهم قد كذبوا، فأيسوا من التصديق، ﴿جَاءَهُمْ نَصْرٌنَا فَتَجِيَّ مَنْ شَاءَ﴾ [يوسف: ١١٠]. لكن الإشكال في قراءة: (كذبوا) ظاهر كلام الشيخ - رحمه الله -؛ أنه ورد على قلوبهم أن وعدهم بالنصر ليس صحيحاً! ولكن يقول الشيخ: إن هذا وارد يضمحل ويتشلاشى، وإنما لقوة الواردات على القلوب، ينسون صدق الوعيد، فيظنون هذا الظن، هذا ما ذهب إليه شيخنا - رحمه الله -؛ إذ قال: كذبوا، أي: قد كذبوا بوعيد النصر، ومعنى ﴿كُذِبُوا﴾: أخبروا بالكذب؛ كما جاء في الحديث: «صدقك وهو كذوب»<sup>(١)</sup>، وهذه لو بقيت ل كانت مطعناً في الرسل أن يظنوا أن الله وعدهم فكذبهم. ولكن شيخنا يقول: إن هذا وارد يرد على القلوب، ويتشلاشى بسرعة. وسبب

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل (٢١٨٧).

وروده على القلب قوة الواردات التي توجب مثل هذا الظن، ويقول شيخنا - رحمه الله - إن هذا أحسن من تأويل الآيات بوجوه بعيدة.

وعندي أن الأمر ليس كما قال شيخنا - رحمه الله تعالى - في هذا، وأن معنى **﴿قَدْ كَذَبُوا﴾**، أي: كذبهم أقوامهم في قولهم إننا مؤمنون؛ لأنهم لو صدقوا في قولهم إنهم مؤمنون لجاءهم النصر؛ فيظن هؤلاء الرسل أنهم قد كذبوا، ليس بخبر الله، يعني: أن الله كذبهم حين أخبرهم بالنصر، ولكن قد كذبوا، أي: كذبهم أقوامهم بقولهم: إننا مؤمنون، وأنه تخلف النصر لعدم إيمان قومهم. وحينئذ ليس في الآية مشكل، تبقى الآية على ظاهرها بدون إشكال: **﴿حَقَّتِ إِذَا أَسْتَيْشَ الرَّسُولُ﴾**، يعني: استبعدوا نصر الله، وظنوا أنهم قد كذبوا من أقوامهم الذين قالوا: إننا مؤمنون، وإننا معكم؛ جاءهم نصرنا. وهذا المعنى الذي قلت: لا شك أنه أحسن مما ذهب إليه شيخنا - رحمه الله -. والواردات بلا شك تردد على الإنسان، ويغفل وينسى الحقيقة التي هي الواقع؛ ولهذا لما كسفت الشمس خرج النبي ﷺ فزعاً يظن أنها الساعة<sup>(١)</sup>، كما جاء في الحديث، وكيف يظن أنها الساعة، والساعة لها أشراط، ولها علامات لم تأت؟ لكن لقوة الوارد الذي ورد على قلبه نسي أن يكون للساعة أشراط تقدمها.



ومن هذا الباب؛ بل من صريحة قوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا تَمَنَّى أَنَّقَ الشَّيْطَنَ فِي أُمَّتِيهِ﴾** [الحج: ٥٢]، أي: يلقى من الشبه ما يعارض اليقين. ثم ذكر الحكم العظيمة المترتبة على

(١) أخرجه البخاري في كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف (١٠١٠)؛ ومسلم في كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلوة الكسوف (٩١٢).

هذا الإلقاء، وأن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يُبطل ما يُلقي الشيطان، ويُحكم آياته، والله عليم حكيم. فقد أخبر بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء لهذه الحِكم التي ذكرها، فمن أنكر وقوع ذلك بناء على أن الرسل لا ريب ولا شك معصومون، وظنَّ أن هذا ينافي العصمة فقد غلط أكبر غلط، ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل قولاً خالفاً فيه الواقع، وخالف نص الآيات الكريمة.

### التعليق

ومن هذا على أحد قول المفسرين قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَّنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمُّتِيهِ فَيَسْخُنَّ أَلْهَمُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ مَأْيَتِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِكْمَةٌ﴾ [٥٧] ليجعل ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَّلَفَاسِيَّةٌ قُلُوبِهِمْ وَلَبِكَ الظَّالِمِينَ لَهُ شَقَاقٌ بَعِيدٌ﴾ [٥٨] ولِعِلْمِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُبَطِّحَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَلَبِكَ اللَّهُ لَهُادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤ - ٥٢]. هذه الآية تنازع الناس فيها قديماً وحديثاً تنازعاً كبيراً؛ فمنهم من قال: إن الرسول ﷺ لماقرأ قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْمُ اللَّتَّ وَالْعَزَّى﴾ [١٩] وَمَنْوَةُ الْثَّالِثَةِ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] قال حين قوله: ﴿وَمَنْوَةُ الْثَّالِثَةِ الْأُخْرَى﴾: تلك الغرانيق العلي وإن شفاعتهن لترتجى! فسمع المشركون هذا الكلام من الرسول ﷺ، وسجدوا مع النبي ﷺ في آخر السورة. فقد سجد مع النبي ﷺ المؤمنون والمشركون والجن والإنس<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الترمذى، كتاب الجمعة عن رسول الله، باب ما جاء في السجدة في النجم، رقم (٥٢٤).

ومنهم من أنكر هذا، وقال: لا يمكن للرسول عليه الصلاة والسلام أن يبني على هذه الأصنام، ويقول: تلك الغرانيق العلی! وأنكروا إنكاراً عظيماً للآثار الواردة في هذا المعنى.

ولكن عند التأمل يمكن أن نقول: إن هذا الذي سُمع من الرسول عليه الصلاة والسلام، ليس هو قول الرسول، وإنما هو قول الشيطان؛ ألقاه فسمعه الناس، فظنوا أنه قول الرسول، فقالوا: هكذا أثني على أصنامنا، وعلى آلهتنا! وهو - في الواقع - ليس كلام الرسول؛ ولهذا قال: ﴿أَلَقَى الشَّيْطَنُ فِي أُمَّنِيَّتِهِ﴾، فلعل هذا من فعل الشيطان. وحيثند، فلا حاجة إلى أن نبطل هذه الآثار الواردة.

ومنهم من قال: إن التمني في قوله: ﴿إِذَا تَعَنَّ﴾ هو أمنية القلب، وليس القراءة؛ يعني: أن الرسول، أو النبي يتمنى، ولكن الشيطان يفسد عليه أمنيته، ويحول بينه وبينها، وهذا ضعيف.

ومنهم من قال: ﴿إِذَا تَمَّنَّ﴾، أي: قرأ؛ ألقى الشيطان في أمنيته، باعتبار من سمعوا هذه القراءة، فيلقي في قلوب أناس شكاً وشبهة، ويلقي في قلوب الآخرين يقيناً وثباتاً، ﴿... فَنَسَخَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَنُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكْمٌ لَّيَجَعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ وَّالْقَاسِيَّةُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُ شَفَاقٌ بَعِيدٌ﴾، فيكون هذا الإلقاء ما يلقى الشيطان في قلب السامع من شبهات حول القرآن، فينسخ الله ما يلقى الشيطان، ثم يحكم الله آياته. لكن سياق الآيات يدل على أن الذي يلقى الشيطان في أمنيته قول يسمع، فيُظَنُّ أنه القرآن. ثم بعد ذلك ينسخ الله هذا القول، ويبين بطلانه، ويحكم الله آياته. والننسخ معناه

هنا: أن ينسىهم إياه حتى لا يكون له أثر، ويكون هذا القول فتنة للذين في قلوبهم مرض، وأما الذين أوتوا العلم، فإنهم يعلمون أنه ليس بشيء، وليس صواباً.

وقد رويت قصة الغرانيق بطرق ضعيفة، وبعضهم ينكرها إنكاراً عظيماً، حتى عنون بعضهم في الكتب التي ألفها «نصب المجانين في نسف قصة الغرانيق». ونحن نقول: ول يكن هذا ضعيفاً، لكن الشيطان يلقي في القراءة، سواء الغرانيق أو غيرها. والذين ضعفوا ظنوا أن هذا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو ليس من قول الرسول، بل يلقيه الشيطان بصوت الشيطان، مقلداً لصوت النبي ﷺ.

وعلى كل حال، هي لا تضر، سواء صحت أو لم تصح، ما دام أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان، ويحكم آياته؛ فليس فيه إشكال. ثم إن الآية صريحة أن الشيطان هو الذي يلقيها، وليس الرسول يتلوها؛ ما قال: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبي إلا إذا تمنى قال في أمنيته كذا وكذا، بل قال: ﴿أَلَقَّ الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ﴾.



ومن هذا - على أحد قوله المفسرين - قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنباء: ٨٧]، وأنه ظن عرض في الحال ثم زال؛ نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين تردد قلبه، ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويدهبا؛ ولهذا قال ﷺ عندما شكى إليه أصحابه هذه الحال التي أفلقتهم مبشرًا لهم: «الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة»<sup>(١)</sup>، ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥/١)، وأبو داود في الأدب، باب في رد الوسوسة، حديث رقم (٥٠٩٠) (١٤/١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الإيمان لقوة وارد من شهوة، أو غضب، وأن المؤمن كامل الإيمان قد يرده في قلبه همٌ وإرادة لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب، ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض. ومن هذا قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَن رَّعَى بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، وهو أنه لما رجع إلى ما معه من الإيمان ومراقبة الله، وخوفه، ورجائه؛ دفع عنه هذه الهم، وأض محل، وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربها؛ ولهذا بعد المعالجة الشديدة التي لا يصبر عليها إلا الخواص من الخلق، قال ﷺ: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ الآية [يوسف: ٣٣]. وكان أحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل له: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنني أخاف الله<sup>(١)</sup>...

### التعليق

هذا الذي ذهب إليه الشيخ -رحمه الله- هو الصواب في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهُمْ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]؛ لأنها امرأة مدللة، امرأة الملك، عليها من الحلي، والثياب، والجمال، والبهاء، ما يوجب تعلق النفس بها؛ فدعته في موضع لا يطلع عليهما إلا الله؛ لأنها أغلقت الأبواب، ولم يبق معه إلا هذه المرأة؛ دعته إلى نفسها وهو شاب فيه ما في الرجال، فـ﴿هَمَتْ بِهِ وَهُمْ بِهَا﴾ أيضاً، لكن منعه أنه رأى برهان ربه؛ رجع إلى نفسه ورأى ما معه من اليقين، ونور الإيمان، فامتنع.

(١) كما في حديث أبي هريرة عند البخاري في الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، حديث رقم (٦٦٠) (٢/١٤٣). ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم (١٠٣١) (٢/١٨٥).

وهذا لا يضرّ يوسف عليه السلام، بل لا يزيده إلا رتبة وفضلاً؛ لأنّه إذا كان في هذه الحال التي وجد السبب فيها وانتفى المانع، ثم بعد ذلك تركه الله؛ صار أعظم منزلة وأعلى درجة ممن لم يكن له همّ بها، فهو إذا لم يهم بها لم يكترث، لكن إذا همّ بها، ثم بعد ذلك رجع وتركها الله عز وجل؛ صار هذا أعظم، فهذا مدح وثناء ليوسف.

وأما من قال: لأنّ معنى **(وَهُمْ إِهَا)** أي: بضربها، فهذا من أفسد الأقوال؛ لأنّه إذا كان ضربها حقاً، فإنّ البرهان ربّه لا يصرفه عنه، وإنّ كان باطلًا، فمعنى ذلك أنها فعلت ما لا تستحق الضرب عليه، فهذا التفسير، لا شك أنه باطل، وأنّ المعنى ما ذهب إليه شيخنا وكذا شيخ الإسلام رحمهما الله، أنّ الهمّ حقيقي.

وهذا البرهان الذي رأه، قال بعضهم: إنه رأى أباه يعقوب يغضّ يديه وأنامله، يقول له: لا تفعل! وهذا أيضاً باطل؛ لأنّ الأب لا يسمى برهاناً، ولكن البرهان ما معه من الإيمان والعلم بالله سبحانه وتعالى والخوف منه، وهذا هو الذي منعه.

والحاصل: أن مثل هذه العوارض - كما قال شيخنا رحمه الله - لا تؤثر على الأمور الثوابت الراسخة؛ لأنّها عوارض تأتي وتزول. قد يعرض على القلب، ولا سيما قلوب المؤمنين، شيء من الشك والجهود والكفر، ولكن كلّ هذا يزول مع الإيمان. حتى إنّه يصور للرجل إذا قام يصلي كأنّما يصلي لأبيه، أو لأخيه، أو لمعلمه، أو ما أشبه ذلك، ولكن هذا كله يزول بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، والانتهاء عنه.

... وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَقْوَا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِّنَ السَّيْطَنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبَصِّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان، والذي يعرض في إرادته، فإذا مسّهم تذكروا ما يعجب من يقين الإيمان، ومن واجباته؛ فأبصروا، فرجع الشيطان خاستاً وهو حسير. ولعل من هذا قول لوط عليه السلام: ﴿أَوْءَأَوْيَ إِلَى رَكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، وقول النبي ﷺ: «رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»<sup>(١)</sup>، يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب على لوط ﷺ تلك الحال الحرجة، والنظر للأسباب العادية، فقال ما قال، مع علمه التام بقوة ذي العظمة والجلال.

### التعليق

لوط عليه السلام قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْءَأَوْيَ إِلَى رَكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، يعني: إلى قوم يمنعوني، ويعصموني، ويعينوني. وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»<sup>(١)</sup>، وهو الله عز وجل، لكنه في تلك الحال الحرجة - كما قال شيخنا رحمة الله - غاب عنه ما سوى الأسباب الحسية، وهو القرابة، والقوم الذين يحمونه ويعنونه.



(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَنَسِّهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾(٥١)﴾ (٣١٩٢)؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب زيادةطمأنينة القلب .(١٥١).

### القاعدة الخامسة والستون:

قد أرشد القرآن إلى منع الأمر المباح  
إذا كان يفضي إلى محرّم أو ترك واجب.

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد».

### التعليق

إذا كان المباح يفضي إلى المحرم كان حراماً، وإذا كان يفضي إلى واجب كان واجباً؛ فتجري فيه الأحكام الخمسة. ويقول الشيخ - رحمه الله -: وهذه القاعدة من قاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد»، يعني: ما كان وسيلة للشيء فله حكم ذلك الشيء، فالوسيلة للواجب واجبة، ومثاله: الوضوء للصلوة واجب، فإذا لم يمكن الوضوء إلا بشراء الماء، كان شراء الماء واجباً. وما كان وسيلة للمحرم، كان حراماً؛ مثاله: لو أن شخصاً جاء يشتري وعاء للخمر، قلنا: البيع عليه حرام. والقاعدة الثانية: «ما لم يتم الواجب إلا به، فهو واجب». لكن قاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد» أعمّ. وعلى هذا تكون هي القاعدة المعتبرة.



فمنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبُنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾

لِيَعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ» [النور: ٣١]، «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَئِنَّ  
الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرْضٌ» [الأحزاب: ٣٢]، قوله: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا  
ثُوِّدَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَأَسْعَوْا إِلَيْنَا ذِكْرَ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ» [الجمعة:  
٩]. وقد ورد بعض آيات تدل على هذا الأصل الكبير؛ فالامور  
المباحة هي بحسب ما يتوصل بها إليه، إن توسل بها إلى فعل واجب  
أو مسنون كانت مأمورةً بها، وإن توسل بها إلى فعل محرم أو ترك  
واجب كانت محرمة منهاً عنها، وإنما الأعمال بالنيات الابتداية  
والغائية، والله الموفق.

### التقليق

الأمثلة واضحة: «وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا  
اللَّهَ عَدُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ»، الأصل في سب آلهة المشركين الإباحة، بل قد  
يجب، فإذا كان يؤدي إلى سب الله عز وجل، وهو منزه عن ذلك  
جل وعلا - بخلاف آلهتهم - كان محرماً.

والضرب بالرجل، الأصل فيه الإباحة، فإذا كانت المرأة  
تضرب برجلها ليعلم ما تخفي من زينتها؛ صار حراماً. فلا يجوز  
للمرأة أن تبدي شيئاً من حلتها؛ لأنه قال: «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ  
لِيَعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ»، مع أنها تعلم ولا ثري. فكيف إذا  
لبست المرأة حلها جذاباً، في ذراعيها، أو في ساقيها، وأخرجت  
ذلك للناس! فإنه يكون أشد تحريمًا.

ثالثاً: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ثُوِّدَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ  
فَأَسْعَوْا إِلَيْنَا ذِكْرَ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ»، والأصل في البيع والشراء أنه حلال  
مباح، فإذا كان يؤدي إلى ترك واجب، وهو صلاة الجمعة؛ كان